

لا يتركون مصدرًا مهمًّا دون شرح أو تفسير يزيل المصاعب ويكشف الغوامض فيه، فمثلًا كتاب سبويه في النحو يعكف عليه العلماء يقرءونه ويسيفونه، ثم يحاولون شرحه وتفسيره ناظرين فيما كتبه سابقوهم عليه من تعليقات، ومحاولين النفوذ إلى شرحه شرحًا يحلُّ كل ما فيه من صعوبات ومستغلقات. ولا يكاد يوجد كتاب نحوى قديم بعده دوت شهرته إلا ويقرنه أساتذة النحو في حلب ودمشق والقدس والقاهرة بشرح يسيع عويصه ويذل صعا به. وبالمثل كتب القراءات والفقه والحديث النبوي، وأيضًا كتب الفلسفة والطب فكتب أبقراط الطبية جميعها يشرحها ابن النفيس المصرى، كما يشرح من كتب ابن سينا كتاب الإشارات وكتاب الدراية في المنطق وكليات القانون في التشريح ولا يكاد يوجد كتاب مهم في أى جانب من جوانب العلم والمعرفة إلا ويتناوله العلماء المختصون بالشروح المطولة.

ورأى كثير من العلماء أن يختصروا المصادر الكبرى في العلوم المختلفة حتى يقف الطلاب على ما بها من القواعد والمسائل الجوهرية دون أن يضلوا في شعابها الكثيرة، ويشيع حينئذ تأليف المختصرات المستقلة التي لا تقف عند اختصار مصدر من المصادر الكبرى، بل تتجاوز ذلك إلى الاستمداد من كل المصادر استمدادًا فاحصًا دقيقًا، بحيث تجمع القواعد العامة في العلم، ولا بأس من الإشارة إلى ما بين أصحاب المصادر من خلافات في اقتصاد وإيجاز، وكانوا يسمون مثل هذه المختصرات متونًا. وكثيرًا ما كان يعمد صاحب المتن إلى شرحه، وقد يشرحه عالم آخر من تلاميذه أو خالفهم، ودائمًا يعنى صاحب الشرح بالتعمق في كل الأمهات الموروثة تعمقًا يدفعه إلى جلب مادتها في شرحه، وأضرب لذلك مثلًا واحدًا هو تشرح السبكي المصرى لمتن التلخيص الذى اختصر فيه الخطيب الدمشقى علوم البلاغة فإنه يذكر في مقدمته لشرحه - كما مر بنا في غير هذا الموضع - أنه استعان فيه بنحو ثلاثمائة مصنف يعدها عدًّا ويحصيها إحصاءً، ومن يقرؤها يعرف أنه لم يترك مصنفًا ألف في علوم البلاغة أو تناول مباحثها من قريب أو من بعيد إلا رجع إليه، وتتوالى في الشرح النقول